كيف تربت الجماعة الأولى (٣)

الأخ محمد قطب

والمربي الأعظم ﷺ يتولى أصحابه بالرعاية ..

إنّ التربية –في عالمنا– موهبة وفن وعلم ..

موهبة تجعل إنساناً من الناس ، بتركيبه الجسمي والعقلي والنفسي والروحي ، أقدر على التربية والتوجيه من إنسان آخر . وعلم وخبرة يتعلمهما الإنسان من الكتب أو من تجارب الآخرين أو من تجاربه هو الشخصية . وفن يطبق به العلم الذي تعلمه بصورة صحيحة تناسب الحالة التي أمامه .

وقد أوتي المربي الأعظم ﷺ ذلك كله وأكثر منه ، إلهاماً لَدُنِيّاً من الله تبارك وتعالى ، إذ صنعه على عينه ليكون للعالمين هادياً ونذيرا ..

إنّ المربي ينبغي أن تكون فيه صفات معينة تؤهله لهذه المهمة الخطيرة .

ينبغي **أولاً** أن يحس الشخص الذي يتلقى التربية أن مربيه **أعلى** منه ، وأنه منه –بالطبيعة– في موقف الآخذ المتلقي ، لا في موقف الند ، ولا في موقفٍ أعلى من موقف المربي !

وتلك حقيقة نفسية تعمل عملها تلقائياً في النفوس ! فأنت لكي تتلقى ، لا بد أن تقتنع أنك في موقف المتلقي ، وإلاّ فلو أحسست أنك أنت في الموقف الأعلى فما الذي يدفعك أن تتلقى من شخص بعينه من الناس ؟

والعلو أمر شامل يشمل مسائل كثيرة في وقت واحد ، ويختلف من وضع إلى وضع . فقد يكون علواً روحياً ، أو يكون تفوقاً عقلياً ، أو يكون تفوقاً أخلاقياً ، أو نفسياً ، أو عصبيا .. أو حتى جسدياً في بعض الأحيان ، وتلك كلها من عناصر (الشخصية) الإنسانية ، تزيد أو تنقص في كل شخص ، وتكوّن في مجموعها من نطلق عليه (شخصية الإنسان) . فنقول باختصار إنّ شخصية المربّي ينبغي أن تكون أكبر من شخصية الذي يتلقى التربية على يديه .

وبهذه المناسبة نقول إنه مما ييسر على جميع الآباء تربية أطفالهم في السنوات الأولى أن شخصيتهم تكون –بالطبيعة– أكبر من شخصية أطفالهم فيتلقى هؤلاء عنهم في سهولة طبيعية . ولكن تبدأ بعد ذلك المشاكل ! فكلما كبر الطفل احتاج أن تظل شخصية الوالدين أكبر منه ، وهنا يسقط بعض الآباء في الاختبار ، إما لأن شخصياتهم

ليست أكبر من أبنائهم بالقدر الكافي ، وإما لأنها ليست أكبر منهم على الإطلاق ! بل يحدث في أحيـــان نـــادرة أن يحس الطفل –الكبير– أن شخصيته أكبر من شخصية والديه ، وهنا يرفض التلقي منهما ويتمرد عليهما !

أما بالنسبة لتربية الكبار فالأمر أشق وأدق .. فهو محتاج إلى (قيادة) وإلى (زعامة) ، يحس الكبار أمامها أنهم أصغر من قائدهم ، وأنهم في موقف التلقي منه لا في موقف الند ولا في موقف التوجيه ..

وينبغي أن يحس المتلقي **ثانياً** أن مربيه –بالإضافة إلى أنه أكبر شخصيةً منه– عنده ما يعطيه ..

فليس يكفي أن تكون شخصية المربي أكبر من شخصية المتلقي –وهي البديهية الأولى في عالم التربية– إنما ينبغـــي كذلك أن تكون عنده حصيلة يعطيها للآخرين في صورة تجربة واقعة .

هناك شخصيات كبيرة لا تستطيع أن تعطي ، ومن ثم لا تستطيع أن تربي .

هو في ذاته شخصية فائقة التكوين . متفوق عقلياً أو روحياً أو نفسياً أو عصبياً أو أخلاقيا .. ولكنه –لسبب ما– لا يستطيع أن يعطي التجربة الواقعية . لأنه عزوف عن الناس . لأنه صاحب تجربة فكرية فقط بغير رصيد من التجربة الواقعة . لأنه رجل (مثالي) حالم يحلم بالمثل ولا يمارس التطبيق الواقعي أو لا يحسنه .. إلى غير ذلك من الأسباب التي تشكل عيباً في الشخصية ولكنها لا تمنعها أن تكون كبيرة ، أكبر من شخصية المتلقي ، ومع ذلك تعجزها عن القيام بدور التربية والتوجيه . ومن الأمثلة المعهودة أن تجد أستاذاً جامعياً ممتازاً في علمه ، ممتازاً في خلقه ، ممتازاً في محاضرته .. ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يربي ، ولا أن يكوّن جيلاً من (التلاميذ) بمعنى الحواريين والأتباع .

وينبغي **ثالثاً** أن يكون المربي –بالإضافة إلى كبر شخصيته (بالنسبة للمتلقي) وإلى أن عنده ما يعطيه– ينبغـــي أن يكون حسن الإعطاء .

فمجرد أن يكون لديه ما يعطيه ليس كافياً في شؤون التربية ، إنما ينبغي أن يعطيه بطريقة حسنة كـــذلك ، وإلاّ ضاع الأثر المطلوب أو انقلب إلى الضد ، حين يعطي المربي ما عنده بطريقة منفرة ..

﴿ ... **وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ... ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

نعم ينبغي أن يكون التقديم في صورة ترغب المتلقي أن يتلقى ، لا في صورة تنفره من التلقي ..

والضمان الأول لذلك هو الحب .. فما لم يشعر المتلقي أن مربيه يحبه ، ويحب له الخير ، فلن يقبل على التلقي منه ولو أيقن أن عنده الخير كله . بل لو أيقن أنه لن يجد الخير إلاّ عنده ! وأي خير يمكن أن يتم بغير حب ؟!

ولكن الحب وحده كذلك لا يكفي . فقد تحب طفلك وتحب له الخير ، ولكن طريقتك في تقــديم الخــير إليــه تشككه في حبك له ، وتوهمه أنك تكرهه وأن توجيهاتك له صادرة عن البغض لا عن الحب ، لأنك تقدمها إليه في صورة فظة لا رفق فيها ولا لين .. من أجل ذلك يمنّ الله على رسوله ﷺ بهذه الموهبة النبيلة في شخصه الكريم :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ** ... ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

واللين مع ذلك ليس معناه ترك الحبل على الغارب حتى تصير الأمور فوضى ، إنما معناه فقط ما عبر عنه القرآن ، عدم الفظاظة وغلظ القلب . أما الحسم فأمر ضروري مع اللين :

﴿ ... **فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ** ... ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

فاللين في موضعه ضروري في عملية التربية . والحسم في موضعه كذلك ضروري على نفس المستوى . إنما المنهي عنه هو الفظاظة وغلظ القلب لأنها لا تأتي بخير ، وتؤدي إلى الانفضاض بدلاً من التقويم .

وإذن فطريقة العطاء مهمة كالعطاء ذاته ، في مزيج من الحب والرفق والحسم ، ومعرفة بمواطن اللــين ومــواطن الحسم ، على قاعدة دائمة من الحب ..

وينبغي **رابعاً** أن يكون عند المربي المقدرة على الاهتمام بالآخرين ، والاهتمام بأن يعطيهم ما عنده من الخير .

هنالك شخص طيب في ذاته . وقد يكون عنده ما يعطيه ، ولكنه لا يهتم بإعطائه للآخرين . لا لأنه يكرهم ولا يحب لهم الخير ، ولكن لأنه عزوف يعيش في عزلة ، أو كسول يكره الحركة .. ذلك لا يصلح للتربية ، لأن الاهتمام بالآخرين عنصر ضروري في التربية ، من الجانبين جانب المربي وجانب المتلقي . أما المربي فإن فقد الاهتمام بالآخرين فلن يتجه أصلاً إلى التربية فضلاً على كونه لا يصلح لها –ولو احترفها احترافاً !– وأما المتلقي فلا يمكن أن ينــشرح صدره للتلقي من شخص يحس في أعماقه أنه لا يهتم به !

فالاهتمام والرعاية إذن عنصر ضروري من عناصر التربية لا بد أن يتوفر في المربي لكي ينجح في مهمته الخطيرة .

وينبغي **خامساً** أن يكون المربي قادراً على المتابعة والتوجيه المستمر .

فالاهتمام وحده لا يكفي إن كان اهتمامَ اللحظة العابرة ثم ينقطع بانتهاء اللحظة أو انتهاء المناســبة . فالتربيــة عملية مستمرة لا يكفي فيها توجيه عابر –مهما كان مخلصاً ومهما كان صواباً في ذاته– إنما يحتاج الأمر إلى المتابعــة والتوجيه المستمر .

إنّ المتلقي نفس بشرية وليس آلة تضغط على أزرارها مرة ثم تتركها وتنصرف إلى غيرها فتظل على ما تركتــها عليه !

نفس بشرية دائمة التقلب متعددة المطالب متعددة الاتجاهات ، وكل تقلب ، وكل مطلب ، وكل اتجاه في حاجة إلى توجيه !

وليست الحالة المستجدة فقط هي التي تحتاج إلى توجيه ! إنما تحتاج هذه إلى **توجيه جديد** . أما الحالة التي حدثت من قبل مرة ومرات ، وأعطيت التوجيه فيها مرة ومرات ، فهي ليست حالة منتهية ! وليست في غــير حاجــة إلى توجيه !

فالعجينة البشرية عجينة عصية تحتاج إلى متابعة دائمة . وليس يكفي أن تضعها في قالبها المضبوط مرة فتنضبط إلى الأبد وتستقر هناك ! بل هناك عشرات من الدوافع الموّارة في تلك النفس ، دائمة البروز هنا والبروز هناك ، ودائمــة التخطي لحدود القالب المضبوط من هنا ومن هناك ، ولا بد في كل مرة من توجيه لإعادة ضبطها داخل القالــب ، حتى تنطبع نفس المتلقي بالتوجيه ، فيقوم هو بذاته العملية المتابعة والضبط بدلاً من المربي . ولكن لا يحدث أبــداً أن يستغني الأمر عن المتابعة والتوجيه والضبط ، من المربي أو المتلقي سواء ! ومن هــن مــشقة التربيــة وخطورتهــا .. وضرورتها في ذات الوقت . فإما هذا الجهد الدائب .. وإما الضياع !

والشخص الذي لا يجد في نفسه الطاقة على المتابعة والتوجيه المستمر شخص لا يصلح للتربية ولو كان فيه كــل جميل من الخصال !

وليس معنى التوجيه المستمر هو المحاسبة على كل هفوة ! فذلك ينفر ولا يربي ! فالمربي الحكيم يتغاضى أحياناً أو كثيراً ما يتغاضى عن الهفوة وهو كاره لها لأنه يدرك أن استمرار التنبيه إليها قد يحدث رد فعل مضاد في نفس المتلقي. ولكن إهمال التنبيه ضار كالإلحاح فيه .. وحكمة المربي وخبرته هي التي تدله على الوقت الذي يحسن فيه التغاضــي والوقت الذي يحسن فيه التوجيه . ولكن ينبغي التنبه **دائماً** من جانب المربي إلى سلوك من يربيه ، سواء قرر تنبيهه في هذه المرة أو التغاضي عما يفعل . فالتغاضي شيء ، والغفلة عن التنبه شيء آخر . أولهما قد يكون مطلوباً بين الحــين والحين ، أما الثاني فعيب في التربية خطير ..

وينبغي **سادساً** أن يكون المربي قادراً على **القيادة** مع قدرته على المتابعة والتوجيه .

والقيادة موهبة توحي للمتلقي أن يتلقى أولاً ، وأن يطمئن لما يتلقى ثانياً ، ثم أن يطيع ، وبغير ذلك لا يكون للتوجيه جدوى ولا يتم من عملية التربية شيء ، ولو كانت التوجيهات صحيحة ، ولو كانت عند المربي القدرة على المتابعة والاهتمام .

أن تصدر الأمر هذا وحده لا يكفي .. ولو كان الأمر صحيحاً في ذاته وضرورياً في مناسبته . إنما ينبغي أن تكون لديك القدرة على جعل المتلقي ينفذ ذلك الأمر ، وإلاّ فالنتيجة أسوأ من عدم إصدار أمر على الإطلاق !

فحين تصدر الأمر للمتلقي ثم لا ينفذه استخفافاً بمن أصدر إليه الأمر .. فقد انتهت المسألة وانقطع الخيط .. ولا جدوى في الاستمرار .

حقاً قد يحدث أحياناً أن يكون العيب في المتلقي ، لأنه عاصٍ متمرد شاذ الطبع ، وذلك أمر سنعرض له بإذن الله في غضون الكتاب . ولكنا هنا ونحن نتحدث عن المربي ، نشير إلى هذه البديهية ، وهي أن من يعجز عن القيـــادة لا يصلح للتربية ، ولو كان في ذاته شخصاً طيباً مشتملاً على كل جميل من الخصال .. وليس كل إنسان طيب الخصال قادراً على القيادة ولا الزعامة ، ولا مطالباً بها كذلك ! فهي أصلاً موهبة لدنية ، تصقلها التجارب وتزيدها مـــضاءً وقدرة . ولكنها لا تنشئها حيث لا تكون !

وقد يكون الأمر هيناً بالنسبة للآباء وهم يربون أطفالهم ، فهم قادرون على فرض إرادتهم عليهم بطريقة ما ، وإن كانوا كثيراً ما يسيئون التصرف فيفسدون أطفالهم في النهاية من حيث يريدون لهم الخير . أما بالنسبة لتربية الكبـــار فالأمر مختلف ، وخاصة حين يكون الأمر أمر دعوة لا أمر سلطان .. هنا **يتحتم** أن يكون المربي قادراً على القيـــادة ، وأن يكون له من شخصيته ما يفرض طاعته على الناس بغير سلطان .

وقد كان يمكن أن نجعل هذا البند السادس جزءاً من البند الأول المتعلق بالشخصية . فالقدرة على القيادة فرع من الشخصية القوية . ولكن هناك حالات تكون فيها الشخصية قوية في ذاتها ومع ذلك تكون عاجزة عن القيادة لفظاظة أو عزلة وعزوف عن الناس .. وسبحان موزع الطاقات وموزع الأرزاق !

* * *

هذه الخصال الست : أن تكون شخصية المربي أكبر من شخصية المتلقي ، وأن يكون عنده ما يعطيه ، وأن يحسن طريقة العطاء ، وأن يكون له القدرة على الاهتمام بمن يربيهم ، والقدرة على المتابعة والتوجيه الدائم ، والقيادة الـــتي تقدر على فرض الطاعة .. هذه هي الخصال الضرورية للمربي –أيّ مرب– لكي يتمكن من القيام بمهمته الخطيرة في تربية الآخرين .

طفل واحد يتربى في حاجة إلى هذه الخصال الست ، كأمة كاملة تتربى .. ولكن شتان في **الدرجة** بـــين الطفـــل الواحد والأمة كاملة .

كلما زادت رقعة التربية وزاد عدد المتلقين كانت الدرجة المطلوبة من هذه الخصال أكبر .

فكل إنسان قد يصلح –جوازاً– أن يكون مربياً في حدود بيته وأطفاله (وإن كان كثير من الآبـــاء في الحقيقـــة يعجزون !)

ولكن تربية أربعين طفلاً في فصل من مدرسة مهمة تحتاج إلى موهبة أكبر ، وإلى قدر من الخصال المطلوبة أكبر ، وإلى علم وتجربة أكبر (وإن كان كثير من المدرسين في الحقيقة يعجزون !)

أما قيادة جماعة من البشر ، فهي في حاجة إلى شخصية غير عادية ، موهوبة ومدربة وذات خبرة تقدر على توفية مطالب التربية لهذه الجماعة ، وهي شيء غير الطفل الواحد وغير المجموعة من الأطفال .

وأما قيادة أمة فأمر أخطر بكثير من قيادة جماعة ، وأحوج بكثير إلى مزيد من الخصال الست المطلوبة ..

فما بالك بقيادة البشرية ؟!

لقد كان محمد ﷺ معداً لقيادة البشرية !

* * *

بهذه التهيئة الربانية لقيادة البشرية كان الرسول ﷺ يرعى أصحابه ويوجههم ويربيهم على منـــهج الإســـلام .. وهؤلاء الذي تلقوا منه مباشرة وتربوا على عينه ﷺ هم الذين كتبوا التاريخ !

وإذا كان كل تلميذ في العادة يقبس قبسة من أستاذه ، فلنا أن نتصور كيف تكون القبسات حين يكون الأستاذ هو الرسول ﷺ . وإذا كان المنهج يترك طابعه فيمن يتربون عليه ، فلنا أن نتصور كيف يكون الطابع حـــين يكـــون المنهج هو القرآن ..

ولقد كان كذلك ..

وخرجت على هذه التربية خير أمة أخرجت للناس .. الأمة التي تركت بصماتها على التاريخ كله من بعـــدها ، وتركت فيه آثاراً لا تزول .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال إنهم يساوون في الوزن أنبياء بني إسرائيل ، فقد كانوا على أقصى درجـــة مـــن التفوق البشري يستطيع البشر أن يصلوا إليه .

و لم يتم هذا دفعة واحدة .. فالتربية عملية طويلة تستغرق السنوات الطوال .. ولقد استغرقت ثلاثة عشرة سنة في مكة ، وسنوات في المدينة ، حتى وصلت إلى الدرجة التي استحقت فيها ذلك الوصف من خالقها : ﴿ **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ**

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وكانت مع ذلك ما تزال تكبو أحياناً كما كبت في أحد ويوم حنين ، ثم تقوم من كبوتها على درس من الدروس القرآنية البليغة ، لتصعد قمة جديدة من قمم البشرية الشامخة ..

كذلك لم يتم هذا كله في أمن ودعة .. ولعله ما كان يمكن أن يتم .. فالله العليم الخبير ، الذي فطر هذه الفطرة البشرية ، يعلم أنه لا بد من الشدة تشدد العزائم ، ولا بد من المحنة تعرك النفوس ..

ولكن الذي تم من أول لحظة هو ذلك الحب العميق لله ورسوله ، والالتقاء على حب الله ورسوله ، والاســتعداد العميق للتلقي من الله ورسوله ، ونبذ التلقي من أي مصدر آخر في الوجود ..

وتلك كانت القاعدة الضرورية التي تنشأ عليها التربية الإسلاميّة فتؤتي ثمارها المرجوة .. ومنــذ اللحظــة الأولى تكونت هذه القاعدة في نفوس المؤمنين ، فأهلتهم أن يتلقوا من أعظم مربٍ في التاريخ ، وأهلتهم أن يستوعبوا هــذه التربية بكاملها ، خطوة بعد خطوة ، وتوجيهاً بعد توجيه ، حتى استقامت نفوسهم على أفقها الأعلى ، وكانت منهم تلك النماذج من البطولة في كل جانب من جوانب الحياة ، وهذا الحشد من الأبطال ، الذي لم يحتشد بهذه الوفرة في تاريخ أمة على مدى التاريخ ..

* * *

كان في رسول الله ﷺ من صفات العظمة الخارقة ما يحبب فيه أتباعه حباً كان يغيظ قريشاً ويكرثها ويثير عجبها حتى قال أبو سفيان حانقاً : (ما رأيت أحداً يحب أحداً كما يحب أصحاب محمد محمدا) !

وكان فيه من صفات القيادة والزعامة ما يجعله مطاع الأمر بين أتباعه بغير سلطان . وما كان لــه علــيهم مــن سلطان قبل إقامة الدولة إلاّ سلطان الحب الخالص والإعجاب العميق . وكان شديد الاهتمام بهم ، يرعى كل واحد منهم كأنما هو صاحبه الأوحد أو صاحبه الأثير عنده . وكان يمنحهم من الحب ما تقر به نفوسهم فيطمئنون علــى مكانتهم عنده ، ويبادلونه الحب بأقصى ما تستطيع نفوسهم الصافية ..

ثم .. لقد كان عنده ما يعطيه ..

وأي عطاء ؟!

منهج الحياة كلها .. كبيرها وصغيرها .. دنياها وآخرتها .. روحيّها ومادّيها .. والنعمة الكــبرى الــتي تؤهــل الإنسان لرضاء الله ..

كان عنده الإسلام !! ومنهج التربية الإسلاميّة !

كان القرآن المكي يتنـــزل كله في العقيدة .. يعرّف الناس بالله ، وباليوم الآخر ، وبقصص الأنبياء والمكذبين من قبل ، وبقصة آدم ، وبقصة الشيطان مع آدم ، وبأخلاقيات لا إله إلاّ الله التي يريد الله أن تحل محل أخلاق الجاهلية ..

وكلها دروس في العقيدة ، ودروس في التربية الإسلاميّة في ذات الوقت . ذلك أن التربية الإسلاميّة قائمة علـــى العقيدة ومرتبطة بها أشد الارتباط ؛ وكل درس قرآني في العقيدة كان يضيف إلى رصيد التربية على المنـــهج الربـــاني الفريد .

والتعريف بالله -كما أسلفنا- هو الموضوع الذي يشمل المساحة الكبرى من القرآن المكّي ، وهو الذي لا يـــزال يتردد في كل سورة ، بصور متعددة ، وأجواء متعددة ، ومواقف متعددة . يجيء ذكراً مباشـــراً لـــصفات الله ﷻ . ويجيء وصفاً لقدرته القادرة التي لا يعجزها شيء في السموات ولا في الأرض . ويجيء في تفصيل خلق الله للسموات والأرض وتقدير أقواتها وتدبير أمرها . ويجيء في مشاهد القيامة في مواقف الحساب والثواب والعقاب . ويجـــيء في سرد قصص الأنبياء ، ووحي الله لهم ، وقصص المكذبين وما فعل الله بهم . ويجيء في قصة خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض ونفحة من روح الله . ويجيء في قصة إبليس وطرده من الجنة وترصده لبني آدم . ويجيء في مناقشة عقائد الجاهلية الفاسدة وأخلاقها المنتكسة ، والدعوة إلى الأخلاق الربانية الإيمانية .. ومن ثم كانت الموضوعات كلها -على اختلافها- موضوعات عقيدة ، إذ كان الهدف الأساسي من إيرادها هو التعريف بعظمة الله الخالق الرازق المدبر المحيي المميت المنتقم الجبار الغفور الرحيم ، صاحب اليوم الأول واليوم الأخير .. ثم تأتي الأهداف الأخرى كلها منطويـــة تحت هذا الهدف الأكبر ومرتبطة به .

وقد يخطر على البال لأول وهلة أن هذا التعريف الواسع بالله سبحانه في القرآن المكي إنّما جاء بهذا الاتساع لأن العرب في جاهليتهم كانوا في حاجة إلى هذا التكرار والتوكيد ليتركوا عقائد الشرك الفاسدة ويوقنوا بوحدانيـــة الله فيعبدوه وحده ويخبتوا إليه .

ولكن ذكر الله -على نفس النمط وإن كان في مساحة أقل -في القرآن المدني ينفي على الفور هذا الخاطر . فقد كان القرآن المدني يتنـــزل في أمة مسلمة تؤمن بالله ورسوله وتجاهد بأموالها وأنفسها في سبيل الله . فلو كـــان هـــذا التكرار والتوكيد موجهاً إلى الكفار وحدهم ليؤمنوا ما كانت هناك ضرورة لتوجيهه إلى المؤمنين الذين آمنوا بحقيقـــة الألوهية بالفعل ، وترسخت في وجدانهم إلى حد أنهم يقاتلون من أجلها ويستشهدون بنفس راضية مطمئنة ..

لا بد إذن أن يكون هذا التكرار والتوكيد لازماً للمؤمنين أيضاً ، ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وليظلوا على ذكـــر دائم لربهم ولا يغفلوا عنه لحظة ، فلحظة الغفلة هي لحظة الشيطان ..

وذلك درس هام في التربية الإسلاميّة ، وعته الجماعة الأولى فكانت على ما كانت عليه من عظمة ورفعة وسموق.

وينبغي لكل جماعة تريد أن تستأنف الطريق أن تكون على وعي منه ، لأنه هو الزاد ، وهو المعــين علــى وعثــاء الطريق ..

وليس القصد من ذلك هو حلقات الذكر وأوراد الصوفية . فما كان الرسول ﷺ يفعل ذلك وهو القدوة في كل أمر من أمور الإسلام . ولا كانت الجماعة الأولى تفعل ذلك ، وهي التي تمثل فيها المنهج الرباني بتمامه كله .

ولا يمكن أن يكون لنا اعتراض على ذكر الله .. فذلك أمر من أوامر الإسلام . ولكن التعرف على المنهج الرباني في التربية يدلنا على أن التذكير الدائم بالله كان وسيلة لغاية ، و لم يكن هو نهاية الغاية ..

الغاية هي الخلاف الرائدة عن الله في الأرض :

﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً** ... ﴾ [البقرة : ٣٠]

وطاعة الله وتنفيذ أوامره وخشيته وتقواه هي الأداة للقيام بالخلافة الراشدة عن الله .

والذكر الدائم لله ، واستحضار عظمته في الوجدان هو الوسيلة لتحقيق الخشية والتقوى ، التي هي أداة الخلافــة الراشدة والمعين عليها ..

فالوقوف عند الوسيلة ، أو حتى عند الأداة ، لا يكون تحقيقاً للإسلام كما أراده الله ، ولا يكون تحقيقــاً لمنــهج التربية الإسلاميّة كما طبقه رسول الله ﷺ بتمامه مع الجماعة الأولى من المسلمين . ومن هذه الزاوية ينبغي أن نحكــم على الأمور ..

إنما تربت الجماعة الأولى على ذكر الله بصورته الحية الدافعة ، التي تدفع النفس إلى العمل وتعينها علــى مــشقة الطريق .

* * *

وكان القرآن يحدث المؤمنين عن اليوم الآخر ، ويجسمه لهم كأنما يرونه اللحظة أمامهم ، ويعيشون مشاهده الحية بوجدانهم . بل بلغ من إعجاز القرآن في تصوير مشاهد القيامة أن يحس الإنسان كأنما يوم القيامة هو الحاضر الماثل ، وكأنما الدنيا ماضٍ قد انقضى وانطوى من زمان بعيد !

وذلك درس من دروس التربية في ذات الوقت الذي هو من دروس العقيدة ..

فثقلة الأرض عنيفة في الحس البشري شديدة العنف .. بقدر عنف الدوافع الفطرية وضغطها على الحس :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ﴾ [آل عمران : ١٤]

ولا شيء يمكن أن يعين الإنسان على ضبط هذه الدوافع والوقوف بها عند الحدود المأمونة التي فرضها الله ، قدر ما يعينه الإيمان باليوم الآخر ، والذي يعوض فيه الإنسان عن كل حرمان تعرض له في الأرض ، بنعيم دائم لا ينفد ، فضلاً عن كونه نعيماً أجمل وأصفى وأجود .

وأيّ بديل يمكن أن تصنعه البشرية لضبط الدوافع ووقفها عند حدها لا يمكن أن يقوم مقام الإيمان باليوم الآخر أو يفعل مفعوله في النفس .. وهذه تجارب البشرية كلها قد عجزت عما قامت به التربية الإسلاميّة في إحكام ويسر ، وهي ترتكز إلى هذا الإيمان العميق باليوم الآخر ، وما فيه من ثواب وعقاب .

أحد البديلين هو الدولة والقانون .. والإسلام لم يغفل الدولة والقانون حين قامت الدولة في المدينة . ولكنه يعلم أن عين الدولة لا يمكن أن ترى كل حالة ، ويد القانون لا يمكن أن تطولها ..

والبديل الآخر هو طرح الأرض جانباً وإهمال الجسد ونبذه واحتقاره كما تصنع البوذية والرهبانية ، لتظهر الروح .. فيختل توازن الإنسان بكبت هذه الدوافع الفطرية واستقذارها ، وتختل الحياة البشرية بتعطيل دفعتها الإيجابية المتحركة الفاعلة في واقع الأرض .

ولكن التربية المرتكزة على الإيمان بالله واليوم الآخر هي وحدها التي تحفظ للإنسان توازنه في الأرض ، ولا تعطل دفعة الحياة .

* * *

وكان القرآن يعرف الإنسان بنفسه ، بعد أن عرفه بربه وباليوم الآخر .. ويجيب كذلك على تساؤلات الفطرة : من أين ؟ وإلى أين ؟ وهي تساؤلات تفرض نفسها على الإنسان فرضاً وتلح في طلب الجواب ..

كان يعرّفه بمنشئه ، من قبضة من طين الأرض ونفخة علوية من روح الله . وبدوره في الأرض وهو الخلافة عن الله . وبغاية خلقه وهي عبادة الله ، بمعناها الواسع الشامل الذي يعني الائتمار بأمر الله في كل شأن من شؤون الحياة ، والتوجه في عملها إلى الله . وبمصيره بعد الموت ، من بعث وجزاء ..

وبذلك تكتمل الصورة كلها من المنشأ إلى المصير . ويعرف الإنسان طريقه ومهمته ودوره ، فلا يتخبط في اختيار الطريق ، ولا يتخطى المهمة ولا يقصر عنها ، ولا يركبه الغرور في أداء الدور فيصنع من نفسه إلهاً أو طاغوتاً يستعبد الناس ، ولا ينحسر بدوره كذلك فيقبل العبودية الذليلة للطاغوت بدلاً من العبودية الكريمة لله ..

وهذا كذلك درس في العقيدة ودرس في التربية في ذات الوقت ، لأنه يحدد خط السير ، يضبط مــسار الخطــى عليه ..

وإن الجاهليات لتأكلها الحيرة وتفسد حياتها حين تسأل : من أين ؟ وإلى أين ؟ ثم لا تجــد الإجابــة الــصحيحة فتضرب في التيه ، كما يقول شاعر جاهلي معاصر :

جئت لا أعلم من أين ، ولكني أتيت ..
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت !

وحين تدركها هذه الحيرة وتحس بالضياع ، تلجأ إلى ملذات الحس تستنفد بها الطاقة وإلى المخدرات والمغيبــات تغرق فيها همها المقيم .. فلا هي في الحقيقة تنسى ولا هي في النهاية تستقر ..

والتربية الإسلاميّة التي ترتكز على هذه الصورة الواضحة المحددة للمنشأ ، والدور ، والغاية ، والمصير ، هي الــتي تمنح الإنسان الطمأنينة وتطلق طاقته للبناء في واقع الأرض بلا حيرة ولا قلق ولا اندفاع مجنون .

* * *

وكان القرآن يعرف الإنسان بقصته مع الشيطان ، وكيف استكبر وأبى أن يسجد لمعجزة الله في خلق آدم علــى هذه الصورة الفريدة في كل الخلق . وطرده من الجنة ، وتوعده بغواية بني آدم وفتنتهم عن طاعة الله وشكره ، بتزيين الأرض لهم ، وشغلهم بها عن الآخرة والعمل لها ، وتزيين الكفر والعصيان واتباع مناهج غير منهج الله

وهذا درس في العقيدة ودرس في التربية كذلك .

فالإنسان عرضة دائماً لأن يغفل وينسى :

﴿ **وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ** ... ﴾ [طه : ١١٥]

ولا بد من تذكيره لكي يتيقظ من غفلته ويتذكر . والتوكيد على التربص الشيطاني للإنسان معين على اليقظــة والتذكر . ومن ثم فهو يؤدي مهمة تربوية ، تساعد على ضبط الدوافع الحادة ، وتزجر عن الاندفاع وراء الشهوات .

* * *

– للكلام صلة –